فى كتاب البخلاء للجاحظ

قرأ عظيم من عظماء الفكر فى مصر كتاب البخلاء للجاحظ فى طبعة وزارة المعارف التى ضبطها وشرحها وصححها الأستاذان أحمد العوامرى بك وعلى الجارم بك ، عضوا مجمع اللغة العربية الملكى فرأى فيها بعض المآخذ على التصحيح أو على الشرح آثر حفظه الله أن ينشرها فى الرسالة خدمة لهذا الكتاب القيم عسى أن تفيد من اقتناه فى هذه الطبعة ، ومن يريد أن يعيد طبعه عنها. ونحن ننشرها شاكرين للأستاذ العظيم فضله على اللغة ، وعطفه على الأدب ، وصلته بمماصلة الرجل الكامل الذى يأخذ كل شىء مأخذ الجد الصارم ، وإن لم يكن من صميم عمله ولا من حر اختصاصه .

فى الجزء الأول

فى ص ٢٨ :« وإذا كان البكاء (الذى) ما دام صاحبه فيه فإنه فى بلاء — وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع ، وشُبِّه بالأمة اللكعاء وبالحدث الضرع — كذلك ، فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ؟ »

قال الشارحان : لم نكن (الذى) فى النسخ التى بين أيدينا وقد أثبتناها من نسخة الشنقيطى ليكون المعنى بها أوضح .

ثم قالا فى رقم ٥ من الشرح : وقوله « كذلك » خبر كان وأنا أرى أن كلمة « الذى » مقحمة لأنها تفسد المعنى ، وأن جواب الشرط « إذا » هو قوله : فما ظنك بالضحك إلخ لا قوله « كذلك » ؛ لأن كلمة كذلك إنما هى لضم « الحدث الضرع » إلى « الأمة اللكعاء » فى تشبيه صاحب البكاء بهما ومن الخطأ الفصل بين كلمتى الضرع و(كذلك) بتلك « الشرطة » — بذلك تتحرر العبارة ، وتنزل على المعنى المعقول الذى يريده الجاحظ وهو أن البكاء مطلقا ما دام صاحبه متلبسا به فهو فى بلاء ؛ وربما أعمى البصر ، وشبه بالأمة اللكعاء وبالحدث الضرع كذلك وإذا كان هذا شأن البكاء على الإطلاق « أى لا شأن نوع منه » فما ظنك بالضحك الخ .

المجلد يدفعون باب الغرفة بمناكبهم وكادوا يحطمونه لو لم يسارع فهيم إلى فتحه ، فإذا به يشاهد المرض وقد رفع مجلد الكتب على كتفيه ، وهو فى قميص النوم ، وبائع الخضار وقد التف بعباءة وهو حاسر الرأس حافى القدمين ، وبائع الألبان واقفاً بسرواله الواسع وبيده هراوة ثقيلة ...

ما هذه الاغارة ؟ وما الذى يريده هؤلاء القوم ؟ ...

إنهم العزاب ... شموا رائحة الأنوثة المسكرة تعبر بأبواب غرفهم ، فهبوا من فراشهم وتتبعوا الأثر إلى أن قادتهم أقدامهم إلى غرفة فهيم ، وكان منهم ما كان ...

قال المرض لجاره الذى أخل بشروط المروءة :

— نحن جيران يا أخى منذ خمس سنوات ، وهل قصرت معك فى شىء ؟ هل طلبت يوماً روحى ولم أضعها تحت تصرفك ؟

وقال بائع الخضار : يافهيم ... إننى أعهدك صريحاً فلو أطلعتنى منذ الأمس على قصدك لكنت مددت لك يد المعونة ، ولسترت عليك الأمر ، ولما درت هذه الكف ما تفعله الكف الأخرى .

وتقدم بائع الألبان مزمجراً والهراوة فى يده وقال : وحق من بسط الأرض ، ورفع السماء ، إن لم تقبلنا فى مهرتك هذه ، لأنثرن دماغك فى جنبات هذه الغرفة ! ...

أما المسكينة فكانت تسمع ولا تفقه ، لكنها أدركت أنها بيت القصيد ، وأنها قد وقعت فى الفخ .

ولما رأى فهيم أن المسألة قد تأزمت ، وأن غرفته ستصبح مسرحاً لرواية مخزية ، ولفاجعة مؤلمة ، قال للفتاة بلغة لا يفقهها جيرانه : —

— لا تجزعى ، سأغلق عليك الباب ، وسأذهب فى طلب بوليس الأخلاق ...

وأقفل الباب على الفتاة واجتاز العزاب وقد تربعوا فى الممر يهدرون كالإبل . وبعد دقائق معدودات ، عاد فهيم ورفقته نفران فتبعثر العزاب هنا وهناك ، وخرجت الفتاة بحراستهما ، وقد سترت رأسها ووجهها بمنشفة حتى لا يراها أحد ، ثم تركوا الدير أربعتهم وساروا فى الطريق مما ، دون أن ينبسوا بكلمة واحدة . وإذ بلغوا مسكن النفرين ، وقف فهيم يستودعهما ويشكرهما على حسن صنيعهما . فأجابه أحدهما : لا شكر على واجب . ولكن هلا تفضلت مع الفتاة لنقضى السهرة عندنا ؟ !

نجاتى صدقى

على أن من يريد إقحام « الذى » بعد كلمة البكاء لتقابل كلمة «الذى» الواردة بعد كلمة الضحك فى جواب الشرط ، لا بد أن يحذف الواو قبل كلمة « ربما أعمى » لتكون ربما وما بعدها خبرا لكان .

وجاء فى صفحة ٣٤ : « وإن من أعظم الشقوة ، وأبعد من السعادة ، ألا يزال يتذكر زلل المعلمين ، ويتناسى سوء استماع المتعلمين » وأظن أن كلمة (من) فى قوله وأبعد من السعادة زائدة أو واجبة التقديم على « أبعد » ؛ وإذا خذفت على اعتبارها زائدة فلا بد من جر « أبعد » بالعطف على أعظم .

وجاء فى صفحة ٧٧ : « قال أبو مازن وأرخى عينيه وفكيه ولسانه ، ثم قال : سكران والله ! أنا سكران » . وقال الشارحان تعليقا على (قال) الثانية : كان يمكن أن يستغنى عن قال هذه ، والصواب فى رأيى أن قال الأولى محتها « مال » إذ لو حذفت قال الثانية لبقى الإشكال فى ثم .

وجاء فى صفحة ٨٩ : «قد عرفت الرأس حق معرفته ، وفهمت كسر الإكسير على حقيقته » والصواب على ما أظن سر الإكسير لا كسر الإكسير . وفى الصفحة نفسها «وعرفت التنجيم والزجر والطرق والفكر» وقد فسر الشارحان كلمة الفكر بقولهما :يحتمل أنه يريد بالفكر هنا طرق التفكير ، والذى أراه أن المراد بالفكر هنا هو قراءة أفكار الناس لا كيفية تفكيره هو ، وهذا النوع هو الشائع الآن عند كثير من المتكهنين .

وجاء فى صفحة ٩٠ : « ولولا أن أكون سببا لتلف نفسك لعلمتك الساعة الشىء الذى بلغ بقارون » وفسر الشارحان المراد بتلف النفس هنا بما قد ينشأ بتعلم هذا العلم من طغيانها وتمردها. وأقول إن المراد صعوبة حمل هذا العلم لما ذكره بعد من عجائبه ، تلك الصعوبة التى تقتضى بذل جهود مهلكة . وفى الصفحة نفسها فسر الشارحان « صنعة التلطيف » فى قول الجاحظ : « ولكنى سألتى عليك علم الإدراك ، وسبك الرخام ، وأسرار السيوف القلمية ، وعقاقير السيوف اليمنية ، وعمل الفرعونى ، وصنعة التلطيف على وجهه» فسرا صنعة التلطيف بصنعة النقش والتزيين. والأظهر أن التلطيف عملية كيميائية كما جاء فى طبعة ليدن . وما لا يعرف معناها بعد مراجعة كتاب الحيوان ، فالغالب أن معناها التصعيد أى تأويل الأجسام إلى غازات ، أو تخفيف الكثيف وجعله رقيقا .

وجاء فى صفحة ٩١ : « ولست أرضاك ولو كنت فوق البنين ، ولا أثق بك وإن كنت لاحقا بالآباء ، لأنى « لم أبالغ » فى محبتك » والصواب فى محنتك لا فى محبتك ؛ لأن عبارة « لم أبالغ » لا تتفق فى هذا المقام مع فى محبتك ، إذ الأب يصف حالة قائمة بنفسه قبل الكلام وأثناءه وبعده ، فإذا فرضنا أن (فى محبتك) غير محرفة ؛ فلا بد أن يكون ما قبلها محرفا عن « لا أبالغ » وبهذا التصحيح قد تكون عبارة ذلك الأب مفهومة . على أن الحق هو أنها صحيحة ، والمحرف إنما هى العبارة التالية ، إذ الأب يقول لابنه إن معارفى التى شغلنى تحصيلها عنك لم تترك لى وقتا أستزيد فيه من اختبارى درجة عقليتك وامتحان مبلغ استعدادك . ولذلك تمشت عبارة « لم أبالغ » مع عبارة « فى محنتك » لأن الوالد يبالغ دائما فى محبة ابنه .

وجاء فى صفحة ٩٣: «احتال الآباء فى حبس الأموال على أولادهم بالوقف ، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستحجار» وقال الشارحان وقد عدل عن الحجر ، وهى الكلمة المألوفة إلى الاستحجار التى لم نجدها بهذا المعنى فيما بين أيدينا من المراجع . وأقول : ليس الإستحجار هو الحجر حتى يكون الجاحظ قد عدل عن هذه إلى تلك ؛ بل الواضح أن الاستحجار هو طلب الحجر ؛ واحتيال القاضى فى الاستحجار هو سعيه بسوء نية فى جعل أحد الناس يطلب الحجر على الموقوف عليه ، وهذا ظاهر لا يدعو للتشكك ولا للرجوع إلى المعاجم .

وفى الصفحة نفسها يقول الجاحظ: « يا ابن الخبيثة : إنك وإن كنت فوق أبناء هذا الزمان فإن الكفاية قد مسختك » وأقول إنها مسحتك بالحاء المهملة لا مسختك كما فى المتن ، ولا محنتك كما فى نسخة ليدن ، ولا مجنتك بتشديد الجيم كما ينطق بعض المستشرقين . وذلك أن مسح الرجل أو مسحه بالتشديد معناها قال له قولا حسنا ليخدعه به ؛ فالمراد إذن أن الكفاية أى رغد العيش الذى أنت فيه قد فتنتك وخدعتك عن نفسك .

وجاء فى صفحة ١٠٢ : « وزرته أنا والمكى ، وكنت أنا على حمار مكار ، والمكى على حمار مستمار ، فصار الحمار إلى أسوأ من